دور حلب الأيوبية في الصراع الأرمني النورماندي على أنطاكية الصليبية

عبد الرحمن محمد كنجو، أ. د عبد الله الحاج عبد الله
(قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب)

الملخص:

أدى الصراع الأرمني النورماندي على أنطاكية إلى استحواذ اهتمام العالم الإسلامي والمسيحي على حدٍ سواء، فقد دعمت حلب النورمان في أنطاكية، وأفشلت جهود الأرمن في الاستيلاء على أنطاكية، الأمر الذي أدخلها في صراعات وحروب مع الأرمن، إلا أن اغتيال الإسماعيلية لريموند ابن بوهيموند الرابع أمير أنطاكية، ومن ثم هجوم بوهيموند الرابع على حصون الإسماعيلية، أدى إلى انهيار التحالف بين النورمان وحلب، الأمر الذي سمح للأرمن بالاستيلاء على أنطاكية.

الكلمات المفتاحية (حلب ـ صراع ـ أرمن ـ نورمان ـ أنطاكية)

Ayyobi Aleppo's Rolein the Norman- Armenion Conflict on Crusader Antioch

Abdel Rahman Mohamed Kanjo, Prof. Dr. Abdullah Al-Haj Abdullah
(Department of History, College of Arts and Humanities, Idlib University)

Abstract:

The Norman-Armenian conflict over Antioch led to the acquisition of the attention of the Islamic and Christian worlds alike. Aleppo supported the Normans in Antioch, and foiled the Armenians' efforts to seize Antioch. This led to conflicts and wars with the Armenians. However, the Ismaili assassination of Raymond, son of Bohemond IV, Prince of Antioch, and then Bohemond IV's attack on the Ismaili fortresses, led to the collapse of the alliance between the Normans and Aleppo, which allowed the Armenians to seize Antioch.

Keywords (Aleppo - conflict - Armenian - Norman – Antioch)

1ـ المقدمة:

تعد الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي نقطة تحول كبرى في الصراع بين الشرق والغرب، وذلك نتيجة للحملات الصليبية التي شنها الغرب الأوروبي على المشرق العربي الإسلامي.

ولكن بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة عام 585هـ/1189م تغيرت موازين القوى لصالح المسلمين، فغدت إمارة حلب الأيوبية لاعباً أساسياً في الصراع الأرمني النورماندي على أنطاكية بحكم قوتها العسكرية وموقعها الجغرافي المتاخم للحدود مع كل من الأرمن في كيليكيا والنورمان في أنطاكية.

تكمن **أهمية البحث** في استحواذ الصراع الأرمني النورماندي على أنطاكية اهتمام العالم الإسلامي والمسيحي على مدى خمسة عشر عاماً، حيث حلّت مشكلة أنطاكية محل الصراع الصليبي الإسلامي في المشرق العربي الإسلامي، لتصبح قضية الساعة وحجر الزاوية في تاريخ العلاقات السياسية خلال الفترة التي تلت الحملة الثالثة حتى قدوم الحملة الصليبية الخامسة.

اعتمد **البحث** على المنهج العلمي التاريخي الذي يقوم على استقراء المعلومات من بطون المصادر وتحليلها بغية التمييز بين المعنى الحرفي وروح النص، من خلال الشرح والتعليل والتفسير والتوضيح، أمَّا فيما يخص الصراعات والمعارك فقد تم الاعتماد على المنهج الوصفي، كما أن الطريقة الإنشائية ضرورية كي يكون الموضوع أكثر حيوية، ونابضاً بالحياة من خلال استخدام لغة فصيحة سهلة واضحة على ألا يكون ذلك على حساب الحقائق التاريخية.

أما بالنسبة **للدراسات السابقة** التي تناولت الموضوع، فلعل أبرزها كتاب "إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون" للدكتور حسين محمد عطية من جامعة طنطا في مصر عام 1989م، وقد مضى على إصدار الكتاب ما يزيد عن الثلاثين عاماً، كما أنه لم يتوسع في دراسة الموضوع بحيث تأخذ الدراسة

حقها واكتفى بالمرور على كثير من القضايا دون أن تنال نصيبها من البحث الدقيق.

وقد تمثلت **الصعوبات** في ندرة وجود المكتبات، مما دفع الباحث إلى الاعتماد على الكتب الالكترونية.

2ـ التمهيد:

أنطاكية مدينة داخلية غير ساحلية، إلا أنها قريبة جداً من ميناء السويدية على البحر المتوسط، تقع المدينة على أول طريق الشام للقادمين من آسيا الصغرى، وكان قد بدأ تاريخها عام 300 ق.م عندما تأسست على يد سلوقس الأول أحد قادة الإسكندر المقدوني[1]، وخلال الحروب الصليبية أصبحت مركز إمارة للنورمان، حيث خرج الجيش الثالث من الحملة الصليبية الأولى بقيادة بوهيموند بن جوسيكارد مصطحباً معه آلاف النورمان من صقلية وجنوب إيطاليا[2].

خاض الأرمن في كيليكيا صراعاً عنيفاً من أجل البقاء، فكان عليهم التصدي لهجمات السلاجقة من جهة، ومحاولات الإمبراطورية البيزنطية استرجاع المنطقة من جهة ثانية، وقد وجد الأرمن في قدوم الحملة الصليبية الأولى منقذاً لهم، فبادروا إلى تقديم المساعدات للصليبيين من مؤن وإرشاد للطرق، وتكونت بين الطرفين صداقة قوية، ويرجع ذلك إلى رغبة الصليبيين في الاستفادة من العنصر البشري في معاركهم في المشرق العربي الإسلامي، أضف إلى ذلك معرفة الأرمن بجغرافية المنطقة، وتأمينهم للمؤن والإمدادات، ويصف صاحب أعمال الفرنجة بلاد الأرمن بقوله "بلاد الأرمن فيها ظمأ شديداً إلى دماء التركمان ــ السلاجقة المسلمين في آسيا الصغرى ــ وعطش إلى الارتواء منها"[3].

وهذا لا يعني أن العلاقات بين أرمن كيليكيا والصليبيين بقيت دائماً في حالة انفراج وتعاون، بل تخللها بعض الخلافات والنزاعات، فقد أقام الصليبيون أولى إماراتهم في منطقة الرها التي يسكنها الأرمن، أضف إلى ذلك توسع إمارة أنطاكية النورماندية شمالاً في منطقة كيليكيا، فانتقل الخلاف حول أحقية ملكية منطقة كيليكيا من الأرمن والبيزنطيين إلى النورمان والأرمن[4].

3ـ أسباب النزاع الأرمني النورماندي:

استغل الأمير الأرمني ليو الثاني[5] حالة الضعف والتشرذم التي حلّت بالصليبيين بشكل عام وإمارة أنطاكية بشكل خاص بعد موقعة حطين عام 583هـ/1187م فاستولى على حصن بغراس[6] مدخل أنطاكية من جهة الشمال، وذلك بهدف توسيع حدود إمارته من جهة، وانتقاماً من أمير أنطاكية بوهيموند الثالث الذي أسر سابقاً شقيق ليو الثاني روبين الثالث، لكنه لم يكتفِ باحتلال حصن بغراس فحسب، بل وجه دعوة لبوهيموند الثالث لزيارة حصن بغراس لحل المشكلة، وأثناء الزيارة قام ليو الثاني باعتقال بوهيموند الثالث سنة 589هـ/1193م[7].

بعد اعتقال أمير أنطاكية والسيطرة على بغراس المدخل الشمالي لإمارة أنطاكية، أرسل ليو الثاني وفداً إلى مدينة أنطاكية يطلب تسليم المدينة مقابل إطلاق سراح بوهيموند الثالث، إلا أن سكان أنطاكية وتحديداً النبلاء اللاتين الذين رفضوا سابقاً الخضوع للحكم البيزنطي رفضوا أيضاً الخضوع للحكم الأرمني[8]، واتخذوا الإجراءات الآتية:

أولاً: عقدوا اجتماعاً بقيادة البطريرك أيمري وأعلنوا قيام قومون "مجلس شعبي" المكون من نبلاء أنطاكية، بهدف الدفاع عن المدينة ضد الغزو الأرمني وإدارتها في ظل اعتقال الأمير[9].

ثانياً: أقسموا يمين الولاء لريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث، بهدف تنصيبه أميراً على أنطاكية في حال استمرار اعتقال بوهيموند الثالث[10].

ثالثاً: أرسلوا إلى ابنه الثاني بوهيموند أمير طرابلس للقدوم إلى أنطاكية بهدف المشاركة في إنقاذ أبيه من أسر الأرمن.

رابعاً: أرسلوا وفداً إلى عكا لدعوة هنري دي شامبانيا[11] الذي اجتمع مع البطريرك وأبناء بوهيموند، ثم توجه إلى سيس[12] وعقد اتفاقاً بين بوهيموند الثالث وليو الثاني[13]، وقد تضمن الاتفاق:

أولاً: اعتراف بوهيموند الثالث بملكية ليو الثاني لكل من ساحل خليج اسكندرون وحصن بغراس.

ثانياً: إعفاء ليو الثاني من يمين الولاء لبوهيموند الثالث.

ثالثاً: إطلاق سراح بوهيموند الثالث دون فدية.

رابعاً: زواج ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث من أليس ابنة شقيق ليو[14].

وبناءً على الزواج الأخير؛ إذا أنجب ريموند من زوجته أليس ولداً ذكراً يصبح وريثاً لليو الثاني في حكم كيليكيا، وبالمقابل بعد وفاة ريموند تدخل أنطاكية في حكم ابنه من زوجته أليس "وقد اتفقوا على هذا، وتعاهدوا عليه كتابةً وبموجب القسم"[15].

كان من نتائج حادثة اعتقال بوهيموند الثالث أن ارتبط مصير أنطاكية بمصير أرمينيا الصغرى[16]، كما تحررت أرمينيا الصغرى من التبعية لإمارة أنطاكية بإعفاء ليو الثاني من يمين الولاء لبوهيموند الثالث، وكانت هذا الحادثة نقطة تحول في تاريخ الأرمن في كيليكيا، حيث انتقل الأرمن من مرحلة الضعف وتدخل القوى الإقليمية في شؤونهم الداخلية إلى مرحلة فرض هيمنتهم على القوى المجاورة.

في عام 593هـ/1197م دخلت العلاقات الأرمنية الأنطاكية طوراً جديداً، تمثل بوفاة ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث، تاركاً وراءَهُ طفلاً صغيراً من زوجته الأرمنية أليس، يدعى ريموند روبين، فبادر جده بوهيموند الثالث بإرساله مع أمه إلى كيليكيا، بهدف إبعاد الأرمن عن أنطاكية، في حين اهتم ليو الثاني بتربيته[17].

4ـ التحالف بين النورمان وحلب:

بعد وفاة بوهيموند الثالث سنة 597هـ/1201م، أرسل ليو الثاني رسولاً إلى بوهيموند كونت طرابلس يخبره أنَّ أباه قد عهد ولاية العهد إلى ابنه البكر ريموند(المتزوج من أليس)، لكن بوهيموند وجد في وفاة والده الفرصة المناسبة لاعتلاء عرش أنطاكية، فتوجه إليها، وشارك في جنازة والده، ومن ثم حصل على يمين الولاء من قومون أنطاكية، وتولى عرشها باسم بوهيموند الرابع، وبالتالي لم تعد هناك قيمة لحق ريموند روبين (ابن ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث)، لذلك عاد ليو الثاني أدراجه إلى كيليكيا بعد أن علم بما حدث في أنطاكية وتبعه قسم كبير من النبلاء الذين أقسموا يمين الولاء لريموند روبين من قبل، فكان عليهم أن يحاربوا إلى جانب الأرمن[18].

الحقيقة إن الصراع بين الأرمن في كيليكيا والنورمان في أنطاكية، قد أخذ طابعاً جديداً، حيث غدت أرمينيا الصغرى مملكة مستقلة معترفاً بها من الغرب الأوروبي، ومن غير الممكن حسم الأمر عسكرياً في معركة يفرض فيها المنتصر رأيه، لأن الصراع قد جذب الكثير من ذوي المصالح في شمال بلاد الشام، فقد انقسم النبلاء بين مؤيد لريموند روبين ومؤيد لبوهيموند الرابع، مما أدى إلى تصاعد المشكلة واستحواذها على اهتمام الصليبيين والأرمن والبابوية والمسلمين أيضاً[19].

لم يكتفِ بوهيموند الرابع بتأييد قومون أنطاكية وكلٍ من الداوية[20] والاسبتارية[21]، فعمل على تكوين تحالف مع الملك الظاهر

(581ـ613هـ/1186ـ 1216م) في حلب، ويرجع ذلك إلى التقارب الجغرافي بينهما، وإلى الحدود المشتركة التي تمتد إلى حمص جنوباً، وإلى تخوف الاثنين من بروز الأرمن كقوة إقليمية كبرى، ولا سيما بعد سيطرتهم على حصن بغراس[22]، فالأفضل بالنسبة للملك الظاهر أن تبقى القوى المسيحية منقسمة على نفسها من أن تُكون جبهة موحدة ضد مسلمي حلب بشكل خاص، أما بالنسبة لبوهيموند الرابع فيكفيه الحصول على المساعدة العسكرية بهدف الحفاظ على الإمارة من أطماع وهجمات الأرمن، وبذلك كان التعاون المشترك بين بوهيموند الرابع والملك الظاهر ضرورة أملتها ظروف كليهما ومصالحهما المشتركة[23].

5ـ محاولات الأرمن الاستيلاء على أنطاكية:

بعد اعتلاء بوهيموند الرابع عرش أنطاكية، توجه ليو الثاني إلى أنطاكية وفرض حصاره عليها، حيث "نزل ابن لاون (ليو الثاني) على جسر الحديد لحرب أهل أنطاكية، وخَرَّبَ البلد، وقطع مادة الميرة المتواصلة من أنطاكية إلى حلب"[24]، إلا أن تدخل الملك الظاهر الذي عسكر بقواته في حارم أفشل هجومه، فتراجع عن أنطاكية لعدم قدرته على مواجهة جيش الملك الظاهر[25].

رافق الحملة الصليبية الرابعة عام 601هـ/1204م وصول قوات صليبية إلى ساحل بلاد الشام، وبموجب الهدنة بين أنطاكية وحلب سُمح لهم بالعبور ضمن أراضي مدينة اللاذقية الخاضعة للمسلمين، إلا أن عدم تقيدهم بضوابط المرور، وشعور المسلمين بخطرهم ورغبتهم بالاستيلاء على اللاذقية، دفع قوات المسلمين في اللاذقية للقضاء عليهم[26] "وعبروا في أرض اللاذقية، على كره من المسلمين، وفي عزمهم إن رأوا لهم طمعاً في اللاذقية يأخذوها"[27].

وبذلك حُرمت أنطاكية من التعزيزات التي كان يمكن استخدامها في مواجهة ليو الثاني، الذي استعان بالقوات الصليبية التي وصلت إلى كيليكيا بحراً بقيادة جان دي نسل[28] حيث انضموا إليه في صراعه ضد أنطاكية، ويرجع

وقوفهم إلى جانب ليو الثاني إلى صدور قرار الحرمان من البابوية بحق بوهيموند الرابع بعد اعتلائه عرش أنطاكية، كما استغل ليو غياب بوهيموند في طرابلس، وهاجم أنطاكية في ربيع الآخر سنة 600هـ/ كانون الأول 1203م، وتمكنت فرقة من قواته من دخول أنطاكية، فتحصن الداوية وقومون أنطاكية في القلعة، وقاموا بهجوم مضاد تمكنوا فيه من طرد الفرقة الأرمنية من المدينة، كما أرسلوا نداء استغاثة إلى الملك الظاهر بحلب الذي عسكر بقواته قرب حارم، فاضطر ليو الثاني للعودة مجدداً إلى كيليكيا[29].

يرجع فشل حملة ليو الثاني على أنطاكية إلى دفاع أهلها، الذين أبوا الخضوع للحكم الأرمني، فقد تصدى للحملة كل من فرسان الداوية ونبلاء أنطاكية اللاتين، الذين استنجدوا بالملك الظاهر في حلب، حيث منح قدومه قوة معنوية للنورمان، وفي نفس الوقت أرعب قدومه ليو الثاني "فلما وصلوا قوات الملك الظاهر إلى العاصي، ضعف أمر ابن لاون (ليو الثاني) عندهم، وقاموا عليه، وأخرجوه منها، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه"[30].

كما استغل ليو الثاني قيام ثورة اقطاعية ضد بوهيموند الرابع في منطقة طرابلس، والتي تمثلت بثورة رينوار حاكم نيفين[31]، وقد هدف ليو الثاني تطويق خصمه من شمال أنطاكية بهجوم القوات الأرمنية ومن جنوبها بقوات رينوار، إلا أن حزم بوهيموند الرابع في قمع الانتفاضة وتأييد كل من الاسبتارية والجنوية[32] له، إضافة إلى نجدة الملك الظاهر، حال دون تحقيق خطوات عملية في التحالف وبالتالي إفشال خطة ليو الثاني[33].

6ـ جهود الأرمن لثني حلب عن التحالف مع النورمان:

أدرك ليو الثاني أن الذي يحول بينه وبين عرش أنطاكية هو الملك الظاهر نفسه، فقد أفشل الملك الظاهر هجمات ليو الثاني السابقة على أنطاكية، لذلك سعى ليو إلى تهديد الملك الظاهر نفسه، وذلك بإعادة ترميم قلعة قرب

حصن دربساك[34] الخاضع للمسلمين، وقام أيضاً بالهجوم على منطقة سهل العمق وأسر أعداد كبيرة من التركمان بالإضافة إلى نهب مواشيهم35.

هدف ليو الثاني من ذلك الضغط على الملك الظاهر لحمله على التخلي عن بوهيموند الرابع ولتحييده بخصوص الصراع حول أنطاكية، بعد أن استعرض ليو الثاني قوته، بادر إلى الاتصال مع الملك الظاهر وعرض عليه أن يرد ما أخذه من إقليم سهل العمق مقابل أن يخلي بينه وبين أنطاكية "وأن يعيد جميع ما أخذه من العمق، فأجابه إلى ذلك، وهادنه على هذا الأمر"[36].

أظهر الملك الظاهر رغبته بالموافقة على قبول عرض ليو الثاني، إلا أنه استمر في إمداد النورمان في أنطاكية بالمؤن "فكان الملك الظاهر يمد أهل أنطاكية بالغلال"[37]، ويرجع ذلك إلى رغبته في إبقاء الاتصال مع النورمان في أنطاكية، فليس من مصلحته سيطرة الأرمن على كل من كيليكيا وأنطاكية وتكوينهم دولة قوية على حدوده الغربية، إلا أنه امتنع عن تقديم الدعم العسكري لبوهيموند الرابع، ويرجع ذلك إلى إخلال بوهيموند الرابع لمواثيقه معه، وظهر ذلك بتأييد بوهيموند الرابع لهجمات الاسبتارية على جبلة واللاذقية، حيث أراد الملك الظاهر أن يشعر بوهيموند بحاجته الماسة لنجدة حلب التي طالما أبعدت الخطر الأرمني عن أنطاكية[38].

أحس ليو الثاني بالغبن، نتيجة عدم تخلي الظاهر عن بوهيموند الرابع بشكل نهائي، فسارع بالهجوم في جمادى الأولى 602هـ/ديسمبر 1205م على المسلمين في حصن دربساك[39]، وتمكنت قوات المسلمين من صد الهجوم، إلا أن الملك الظاهر لم يكتفِ بذلك، بل ترأس جيشه وتوجه إلى أنطاكية طالباً عشرة آلاف من المشاة النورمان ليهاجموا ليو الثاني من جهة الجنوب، بينما يهاجم الملك الظاهر من جهة الشرق "وطلب جماعة من أنطاكية، واتفق معهم على أن يستخدم من الفرنج (النورمان) عشرة آلاف راجل، ويقصدون بلاد ابن لاون(ليو الثاني) من جهتهم، ويقصد الملك الظاهر بلاده من جهته"[40].

وتمكن المسلمون بمساعدة فرقة أنطاكية من صد الهجوم الأرمني على مرج دابق[41]، ثم انتقلوا إلى الهجوم، وعندما أدرك ليو الثاني عجزه عن التصدي للهجوم، إضافة إلى تخوفه من وقوع كيليكيا تحت سيطرة المسلمين والنورمان، سارع إلى طلب الصلح من الملك الظاهر وتم الاتفاق في شهر محرم سنة 603هـ/ آب 1206م على الآتي:

أولاً: يهدم الأرمن الحصن الذي بنوه مقابل حصن المسلمين في دربساك.

ثانياً: أن يرد ليو الثاني جميع ما أخذه من الغنائم.

ثالثاً: أن يرد ليو الثاني جميع الأسرى.

رابعاً: ألا يتعرض الأرمن لأنطاكية.

خامساً: مدة الصلح ثماني سنوات[42].

وبذلك نجح بوهيموند الرابع بتحالفه مع الملك الظاهر ومشاركته في الحرب بعشرة آلاف مقاتل من كبح جماح الأرمن، والتخلص ولو مؤقتاً من مضايقاتهم.

بعد فشل ليو الثاني في السيطرة على أنطاكية، لم يبق أمامه سوى الانتقام والتعبير عن غضبه، فبادر إلى الإغارة على سهل أنطاكية، مدمراً الحقول الزراعية، ناشراً الرعب في قلوب الأهالي، فبادر الملك الظاهر بإرسال قسم من قواته إلى السلطان السلجوقي كيخسرو بن قليج أرسلان[43] (588ـ592هـ/1192ـ1196م)، للقيام بحملة مشتركة تستهدف تأديب ليو الثاني، وتهديده في عقر داره[44].

نجحت الحملة في السيطرة على بعض القلاع والحصون "فدخل غياث الدين بلاد بن لاون (ليو الثاني)، وعاث فيها، ونازل حصناً وافتتحه بالأمان .... وفتح قلاعاً أخرى وخربها"[45].

وأمام عجز ليو الثاني عن التصدي للحملة، راسل الملك العادل في مصر (592ـ615هـ/1196ـ1218م) لعقد هدنة؛ وبدوره أرسل الملك العادل إلى الملك الظاهر وإلى كيخسرو وتم الاتفاق على "أن يرد حصن بغراس إلى الداوية، وألا يعرض لأنطاكية"[46].

اتصال ليو الثاني بالملك العادل أنقذ كيليكيا من الحملة المشتركة، إلا أنه أدخل لاعبين جدد إلى مشكلة أنطاكية، أولهما غياث الدين كيخسرو الذي يهدف إلى توسيع حدود إمارته على حساب الأرمن، والثاني الملك العادل في مصر، الذي يهدف إلى إظهار نفسه الأقوى في المنطقة.

7ـ انهيار تحالف النورمان مع حلب:

رغب البابا أنوسنت الثالث(595-613هـ/1198-1216م) استغلال علاقة الصداقة والتحالف التي ربطت بين الظاهر وبوهيموند الرابع في سبيل الحفاظ على الصبغة اللاتينية للكنيسة، فقد وقف الظاهر مع بوهيموند الرابع لحماية مصالحه الخاصة، فإذا استجاب الظاهر لطلب البابا بمساعدة البطريرك إيمري، فإن هذا الأمر سوف يفسد العلاقة بينهما، وهذا ما يرنو إليه البابا، وإذا لم يستجب الظاهر، فلن يخسر البابا شيئاً، وهذا ما حدث فعلاً، فلم يكن لخطاب البابا أي تأثير لدى الملك الظاهر[47].

في سنة 610هـ/1213م قام الإسماعيلية[48] باغتيال ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الرابع، الأمر الذي دفع بوهيموند الرابع للانتقام من قتلة ابنه، فاستغل هجوم الاسبتارية على حمص وحماة في شهر جمادى الثاني 611هـ/ تشرين الثاني 1214م، وهاجم أملاك الإسماعيلية، وفرض حصاره على حصن الخوابي[49]، فاستنجد الإسماعيلية بالملك الظاهر الذي أمدهم بمئتين من المشاة وفرقة من الفرسان، إلا أن قوات النورمان اشتبكت مع تعزيزات الظاهر وانتصرت عليها وأسرت ثلاثين مقاتلاً، الأمر الذي دفع الملك المعظم عيسى[50] ابن الملك العادل في دمشق إلى الدخول إلى أراضي طرابلس ونهب ضياعها،

فانسحب النورمان من حصن الخوابي، وعندها تمكنت قوات الظاهر من دخول الحصن، وبدوره أرسل الملك الظاهر للنورمان يعلمهم بأنه لن يمكنهم من الإسماعيلية، وقد ذكر الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام "قصدت الفرنج (النورمان) بلاد الإسماعيلية ، ونزلوا على حصن الخوابي، وجدوا في الحصار، وكانوا حانقين على الإسماعيلية بسبب قتلهم ابن البرنس صاحب أنطاكية (ريموند ابن بوهيموند الرابع)، شاب ابن ثمان عشرة سنة، فخرج الملك الظاهر بعسكره ليكشف عنهم، فترحلت الفرنج (النورمان)عن الحصن"[51].

نتج عن حملة بوهيموند الرابع والاسبتارية على حصن الخوابي:

أولاً: فشل الحملة في تحقيق أهدافها التي خرجت من أجلها وهي الانتقام لمقتل ريموند ابن بوهيموند الرابع، أو الحصول على غنائم.

ثانياً: خسارة بوهيموند الرابع لحليفه الإستراتيجي، فبالنسبة للملك الظاهر كان تحالفه مع بوهيموند الرابع مبنياً على مصالحه الخاصة في فرض هيمنته على شمال بلاد الشام ومنع قيام دولة كبرى للصليبيين تهدد حدوده الغربية والشمالية، وبالمقابل فإنّه لن يسمح للنورمان بالهجوم على أراضي المسلمين في تلك الفترة التي بلغ فيها النورمان مرحلة شديدة من الضعف.

8ـ استيلاء ريموند روبين على أنطاكية 612هـ/1216م:

بعد مقتل ابن بوهيموند الرابع وفشله في الانتقام، وخسارته لحليفه الظاهر، تخلى بوهيموند الرابع عن أنطاكية، وانتقل للعيش في طرابلس بعيداً عن مشاكل أنطاكية، أضف إلى ذلك الضائقة الاقتصادية التي تعيشها أنطاكية نتيجة خسارتها معظم أراضيها الزراعية عقب موقعة حطين سنة 583هـ/1187م، وملل السكان من المشاكل الداخلية بين النورمان أنفسهم، ونجاح ليو الثاني في كسب ولاء بعض النبلاء بالمال، وقيامهم بفتح باب القديس بولس الواقع في الجهة الشمالية للقوات الأرمنية مساء يوم 24 شوال 612هـ/14

شباط 1216م[52]، "استولى الملك ليو الثاني على أنطاكية، وذلك بفضل دهائه ومرونته، من دون خوض معارك ضارية، وقد تمكن من الوصول إلى أهدافه من خلال عدد من الأثرياء والأعيان"[53].

واستيقظ سكان أنطاكية على وقع الموسيقا العسكرية، حيث توجه ليو الثاني بصحبة الأمير ريموند روبين إلى كنيسة القديس بطرس، وقدما فروض الطاعة للبطريرك اللاتيني الذي أعلن ريموند روبين أميراً على أنطاكية رسمياً، وقدم البارونات فروض الطاعة له، أما بالنسبة لموقف بوهيموند الرابع فقد عاد أدراجه إلى طرابلس بعد أن تأكد من سقوط أنطاكية، وعدم امتلاكه القوة لاستعادتها[54].

لعل أهم أسباب سقوط أنطاكية بيد الأرمن بالآتي:

أولاً: العزيمة وقوة الإرادة التي تحلى بها ليو الثاني، فلم يعرف اليأس خلال فترة صراعه مع بوهيموند الرابع التي امتدت من وفاة بوهيموند الثالث عام 597هـ/1201م إلى عام 612هـ/1216م.

ثانياً: اعتماد ليو الثاني تارة على الحرب والسلاح؛ وتارة على الدبلوماسية والمفاوضات، فقد فشل عدة مرات في دخول أنطاكية عسكرياً، وفي المقابل ناضل بلا كلل وملل ودخل في المفاوضات التي رعتها البابوية.

ثالثاً: نجاحه في كسب الاستبارية من خلال الامتيازات التي وعدهم بها في كل من أنطاكية ودولة سلاجقة الروم.

رابعاً: نجاح ليو الثاني في تحييد فرسان الداوية عندما أعاد لهم أملاكهم في كيليكيا، وتعهد لهم برد حصن بغراس، فعند دخوله إلى أنطاكية لم يظهر الداوية أي مقاومة أو رفض، وبالمقابل أعاد لهم ليو حصن بغراس بعد دخوله أنطاكية.

خامساً: ملل سكان أنطاكية من حالة الحرب والعداء التي استمرت بينهم وبين الأرمن لفترة زمنية تقدر بخمسة عشر عاماً.

سادساً: الوضع الاقتصادي الذي تعاني منه إمارة أنطاكية نتيجة المشاكل الداخلية والحروب الخارجية مع الأرمن، إضافة إلى تقلص الحدود الجغرافية لأنطاكية بعد تجريدها من معظم أملاكها عقب معركة حطين سنة583هـ/1187م.

سابعاً: انهيار الروح المعنوية لبوهيموند الرابع بعد مقتل ابنه على يد الإسماعيلية، وفقدانه مساعدة الملك الظاهر بعد حملته الفاشلة على حصن الخوابي.

ثامناً: مغادرة بوهيموند أنطاكية، واستقراره في طرابلس، الأمر الذي سمح لنبلاء أنطاكية الموالين للأرمن بالاتصال بليو الثاني، وفتح الأبواب له.

9ـ المراسلات بين الأرمن وحلب:

وفي شهر محرم من سنة 613هـ/1217م أرسل عز الدين كيكاوس[55] (608ـ616هـ/1211ـ1219م) يحث الملك الظاهر على قتال ليو الثاني وانتزاع أنطاكية منه، فأجاب الملك الظاهر على أن يقصد عز الدين كيكاوس بلاد الأرمن من جهة مرعش، والملك الظاهر من جهة دربساك، في الوقت الذي يقصد فيه بوهيموند الرابع أنطاكية[56]، وبدوره أعلم الملك الظاهر عمه العادل بنية الهجوم على بلاد الأرمن، إلا أن عمه نصحه بعدم التحالف مع عز الدين كيكاوس، وهنا وقع الملك الظاهر في حيرةٍ من أمره، فكيف يوفق بين وعده لعز الدين بالمشاركة ويستجب لأوامر عمه العادل بالامتناع، فغلب عليه الأمر الثاني ولا سيما بعد قدوم رسل ليو الثاني إلى حلب، حيث قدموا له هدايا ثمينة، ورسالة من ليو الثاني جاء فيه "إنني مملوك السلطان، وغرس دولته، وقد دخلت إليه دخول العرب، وأطلب منه إنقاذي من هذه الورطة، وأكون مملوكه ما عشت، وقد حفظت بلاد السلطان غير مرة وخدمته ..... وإن كان

الإبرنس(بوهيموند الرابع) خدم السلطان، فخدمتي أكثر من خدمته، وسوف يبصر السلطان خدمتي، وملازمتي بابه الشريف، وقد أوصيت ابن أختي الذي نصبته في أنطاكية بملازمة خدمته"[57].

ونتيجة لرسالة ليو الثاني الذي تعهد فيها بعدم الاعتداء على أرضي المسلمين، واقتراب وصول الحملة الصليبية الخامسة أحجم الملك الظاهر عن القيام بأي عمل عسكري تجاه الأرمن في كيليكيا.

10ـ الخاتمة:

من خلال ما ذُكر سابقاً نجد أن العلاقات السياسية لإمارة حلب الأيوبية مع كل من الأرمن كيليكيا والنورمان في أنطاكية كانت نتيجة للصراع الأرمني النورماندي على أنطاكية، وقد تميزت مرحلة الصراع هذه بعدم حدوث صراع مباشر بين المسلمين والنورمان، نتيجة انشغال النورمان بالصراع مع الأرمن حول ملكية عرش أنطاكية، وتميزت أيضاً بالصراعات المستمرة مع الأرمن، فقد حلت مشكلة أنطاكية محل الصراع الصليبي الإسلامي في المشرق العربي الإسلامي، وقد لعبت حلب الأيوبية دوراً كبيراً في هذا الصراع بحكم قوتها العسكرية وموقعها الجغرافي المتاخم للحدود مع كل من الأرمن في كيليكيا والنورمان في أنطاكية، وقد هدفت حلب من تدخلها في هذا الصراع تحقيق توازن دولي بهدف الحفاظ على نفسها من جهة، ومن جهة ثانية منع قيام تكتل صليبي ضدها، فقد هدفت سياستها إلى بقاء الوضع على ما هو عليه، الأرمن في كيليكيا والنورمان في أنطاكية، ومنع أي طرف من السيطرة على ممتلكات الطرف الآخر في سبيل الحفاظ على مصالحها.

1- Michel Najim and T.l. **Frazier, Brief History of the Patriarchate of Antioch**, without date and place of publishing, p2.

2 – مصطفى حسين محمد الكناني: **العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1981م، ص119–120.

3 – مؤرخ مجهول: **يوميات صاحب أعمال الفرنجة**، الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1955م، ج6، ص103.

4 – قاسم عبده قاسم: **ماهية الحروب الصليبية**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1987م، ص100.

5 – ليو الثاني أميراً ذكياً، ومقتدراً وفارساً بارعاً وشجاعاً في أعمال الحروب، تولى حكم بلاد الأرمن في كيليكيا بعد وفاة أخيه روبين؛ **سمباط الأرمني**: الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1999م، ج35، ص292.

6 – **ذيل وليم الصوري**: الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1993م، ج8، ص359.

7 – سمباط الأرمني: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج35، ص301.

8 – ذيل وليم الصوري: المصدر السابق، الموسوعة الشامية: ج8، ص474.

9 – حسين محمد عطية: **إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1989م ص237.

10 – المرجع نفسه، ص237.

11 – قَدِمَ هنري كونت شامبانيا إلى الشرق في صيف عام 586هـ/1190م برفقة ملك إنكلترا ريتشارد، وأقام في عكا، ثم تزوج من ايزابيلا وريثة عرش مملكة بيت المقدس؛ توفي عام 594هـ/ 1197م المرجع نفسه، ص236.

12 – سيس: أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس؛ ياقوت (عبد الله الحموي، ت: 626هـ): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977م، م3، ص297.

13 – **ميخائيل السوري الكبير** (ت: 1199م): الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ج5، ص309.

14 – حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص237–239.

15 – سمباط الأرمني: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج35، ص304.

16 – حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص239.

17 – سمباط الأرمني: المصدر السابق، ج35، ص304.

18 – المصدر نفسه، ج35، ص312؛ حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص256.

19 – المرجع نفسه، ص256.

20 – تأسست رهبانية الداوية في سنة 512هـ/1118م من أجل الدفاع عن المملكة اللاتينية في مملكة بيت المقدس، وكانت رهبنة قوية وترية جداً؛ جون أوف وورزبيرغ: **وصف الأرض المقدسة**، الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1998م، ج33، ص360–361.

21 – تأسست رهبانية فرسان الاستبارية أولاً على شكل مشفى في بيت المقدس سنة 485هـ/1092م وكانت هذه الرهبنة قوية وثرية، وعرفت من سنة 701هـ/1301م حتى 930هـ/ 1523م باسم فرسان رودس، وبعهدها باسم فرسان مالطا؛ المصدر نفسه، ج33، ص360.

22 – بغراس قلعة من أنطاكية قريبة وأنها في الشدائد لدعائها مجيبة وهي للداوية، الأصفهاني: **الفتح القسي**، الموسوعة الشامية، ج13، ص172.

23 – حسين محمد عطية المرجع السابق، ص257–258.

24 – ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت:697هـ): **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تح: جمال الدين الشيال، الإسكندرية، د–ت، ج3، ص140.

25 – حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص263.

26 – كانت اللاذقية تابعة لحلب، تحت حكم سيف الدين بن علم الدين، وبموجب اتفاقية الهدنة مع الصليبيين، سُمح لهم بالعبور من اللاذقية براً باتجاه أنطاكية، لكن عندما أحس المسلمون بخطرهم ورغبتهم في الاستيلاء على اللاذقية، اشتبكت قوات المسلمين معهم، واقتادهم أسرى إلى حلب؛ ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد، ت: 660هـ): **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م، ص445.

27 – المصدر نفسه، ص445.

28 – جان دي نسل الفرنسي، قَدم بقواته إلى بلاد الشام، وعندما علم بقرار الحرمان بحق بوهيموند الرابع أمير أنطاكية، وقف إلى جابن الملك ليو الثاني الأرمني، وسانده في مهاجمة أنطاكية عام 600هـ/1203م؛ حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص264.

29 – ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص154–155؛ الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، ت:748هـ): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1987م، ج42، ص52.

30 – ابن العديم: المصدر السابق، ص446.

31 – تزعم رينوار حاكم نيفين ثورة اقطاعية في إقليم طرابلس، ونجح في هزيمة بوهيموند الرابع، حيث وصل بقواته إلى أبواب طرابلس، وشكلت هذه الثورة تهديد خطير على بوهيموند الرابع كونها تحالفت مع ليو الثاني، وقد نجح بوهيموند الرابع في القضاء عليها بمساعدة الجنوية بعدما اشتبك مع رينوار في معركة انتهت بهزيمة رينوار وأسره، وفقدان بوهيموند الرابع إحدى عينه؛ حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص270–273.

32 –جنوة إحدى مدن إيطاليا، تقع على الساحل الشمالي للبحر التيراني، شاركت في الحروب الصليبية؛ مها داوود: **مدن الساحل الشامي ما بين أنطاكية وطرابلس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد**، جامعة دمشق، 2004م، ص191.

33 – ابن العديم: المصدر السابق، ص446؛ حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص271–273.

34 – قلعة من جند قنسرين، شمالي حلب، وهي قلعة حصينة ذات أعين وماء، القلقشندي (أحمد بن علي، ت: 821هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، ج4، ص122.

35 – ابن الأثير (علي بن محمد، ت:630هـ): **الكامل في التاريخ**، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ج10، ص319.

36 – ابن العديم: المصدر السابق، ص446.

37 – المصدر نفسه، ص446.

38 – حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص273.

39 – قلعة من جند قنسرين، شمالي حلب، وهي قلعة حصينة ذات أعين وماء، القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 122.

40 – ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص 170–171؛ الذهبي: المصدر السابق، ج43، ص9.

41 – من أعمال إعزاز في شمالي حلب.

42 – ابن العديم: المصدر السابق، ص447.

43 – غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص217.

44 – المصدر نفسه، ج3، ص187.

45 – المصدر نفسه، ج3، ص187.

46 – ابن العديم: المصدر السابق، ص448.

47 – حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص284–287.

48 – نشأت بعد ضعف الدولة الفاطمية وسقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي، كان حصن مصياف من أعظم حصونها في بلاد الشام، اتبعت أسلوب الاغتيال السياسي لقادة الجهاد الإسلامي؛ مها داوود: المرجع السابق، ص217.

49 – حصن الخوابي: قلعة في جهة الشمال من طرابلس على نحو مرحلتين، القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص147.

50 – الملك المعظم سلطان الشام شرف الدين عيسى بن العادل الحنفي الفقيه الأديب ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وحفظ القرآن وبرع في الفقه؛ الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، ت: 748هـ): **العبر في خبر من غبر**، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2، 1984م، ج5، ص100.

51 – الذهبي: المصدر السابق، ج44، ص6.

52 – ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت: 874هـ): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د–ت، ج6، ص213.

53 – سمباط الأرمني: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج35، ص317.

54 – المصدر نفسه، ج35، ص317؛ حسين محمد عطية: المرجع السابق، ص295.

55 – عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو ابن قليج أرسلان ابن مسعود ابن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم؛ ابن سباط (حمزة بن أحمد بن عمر، ت:926هـ): **صدق الأخبار**، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1993م، ص272.

56 – سمباط الأرمني: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج35، ص233.

57 – ابن واصل: المصدر السابق، ج3، ص235.